

العلاقات الاقليمية الريفية – الحضرية

قام العديد من العلماء بتحليل دقيق للعلاقات الوظيفية بين الريف والحضر، ومن المعروف لكل باحث إن المدينة يحيط بها دائما نطاق من الأرض تخدمه وتعتمد عليه فالمدينة لا يستطيع إن تعيش مكتفية بذاتها، معتمدة على مواردها الحضرية يقيمها فتقوم بأعمال لا بد تؤدي في أماكن مركزية (كما قال جيفرسون)، فهناك تفاعل وثيق بين المدينة وريفها، ويتكون من مجموعة من الأفعال وردود الأفعال المتبادلة تنتهي بخلق مركب إقليمي متميز، وان إشعاع المدينة في الريف فيه انعكاس لتخصصها الوظيفي ولهذا لا يمكن إن نتصور الريف بلا مدينه أو المدينة بلا ريف

فالمدينة التقليدية التي عرفت من حيث الشخصية- بأنها ((مدن أسواق)) تقوم بمجموعة من الوظائف لخدمة الإقليم الذي تقع فيه. وبذلك تقوم مدن الأسواق هذه نيابة عن مناطق الأرياف الواقعة حولها بمجموعة من الوظائف والخدمات الأساسية وأهميتها هنا تبقى في كونها مكانا مركزيا بالنسبة للإقليم الذي تخدمه وتكمن أهميتها في وجود مساحة من الأرض وعدد من السكان يعتمدون على هذا المكان المركزي في نشاطهم الاجتماعي والاقتصادي. وكان من الطبيعي إن تكون المدن هي نقطة التقاء ((الإنتاج)) لكل من سكان الحضر والأرياف على السواء.

على إن بعض مدن الأسواق ما زالت توجد حتى الآن في أماكن متقاربة على الرغم من إن المراكز الحضرية الأكبر قد أخذت جزءا من وظائفها والسبب في ذلك هو إن هذه المدن ما زالت مراكز مهمة لتسويق المنتجات المحلية لزوجة الفلاح التي ترغب في الذهاب إليها دائما لقضاء ضروريات الحياة اليومية.

ويحاول دكنسون Dickinson تعريف إقليم المدينة فيقول انه ذلك النطاق الذي يحيط بالمدينة المركزي (الإم) فهذه المدينة هي بحكم مركزها وموقعها سوق الإقليم ومصرفه وربما مصنعه إدارته وخدماته الصحية والثقافية والترفيهية إلى غير ذلك وتمييزا لإقليم المدينة عن غيره من الأقاليم فقد أطلقت عليه عدة تسميات خاصة، فقد سماه سميلز بالحقل الحضري Field Urban وسماه مخططو المدن (بالإقليم الوظيفي Region Functional كما سمي بالأقاليم المنظم Oeganisational ومنهم من استعمل مصطلح ((مجال التأثير الحضري)) Field Urban Influence .

فتقسيم العلم إلى أقاليم مدن ليس حلا لمشكلة الإقليم الجغرافي، وان إقليم المدينة ما هو إلا نوع من تلك الأنواع ابتدعها الجغرافيون لبلوغ قمة الجغرافية، وتوجد مساحات واسعة في قلب عدد من القارات ؛- . وخاصة في إفريقيا وأميركا الجنوبية لا تنتمي إلى أي من أقاليم المدن لسبب واضح هو غياب مدينة تحتل بؤرة الإقليم

إذن فقد بنيت فكرة إقليم المدينة على أساس العلاقة بين المدينة وما حولها من ريف ومدن اصغر، وقد تباينت العلاقات المكانية من عصر إلى آخر، إما نتيجة لاختلاف المرحلة أو المستوى التقني وخاصة فيما يتعلق بالمستوى الحضاري، أو لظهور علاقات جديدة ووسائل لم تكن معروفة من قبل. فقد أدى التطور الكبير في وسائل النقل والمواصلات إلى اختلاف مجالات نفوذ المدن

وقد مرت العلاقات الإقليمية الريفية والحضرية خلال التاريخ بتطورات فالمدينة كانت بنت الريف وتعتمد عليه اعتمادا يكاد يكون كليا. كانت المدينة تأخذ ولا تعطي إلا النزو اليسير. ويفسر ذلك ببساطة حياة أهل الريف. وبذلك الاكتفاء الذاتي الذي ميز حياتهم بحيث استغنوا إلى حد كبير عن العالم الخارجي في تلبية مطالبهم اليومية؛ حتى إن مطالبهم المتواضعة من المصنوعات منها حرفيو القرية وصناعها ثم أخذت المدينة تسوق ما فاض من منتجات الريف القريب؛ ولكن وسائل المواصلات البدائية وضعت حدا لهذه العلاقة، وفي نفس الوقت عملت على الاستمرار اعتماد المدينة على الغذاء وبعض الخدمات المجلوبة من مجالها الريفي.

ومع ذلك أخذت المدينة تثري على حساب الريف بفضل ما أوتيت من خبرة وقدرة على استثمار المال وادخاره، وبالمال فرضت سيطرتها على الريف، وملكت أراضي بل ومن يعيش عليها .

وقد تغيرت هذه العلاقة مرة أخرى عقب الانقلاب الصناعي وما ارتبط به من تطور مثير في الوسائل النقل والمواصلات.

صارت المدينة أقل اعتمادا على الريف المجاور ولكنها صارت في نفس الوقت محط أنظار أهل الريف وقبلتهم يقصدونها لقضاء حاجاتهم وربما للعيش منها إذا طاب لهم المقام. لقد صار تأثير المدينة في الريف نافذا وصارت الوظيفة الإقليمية لا تقل أهمية عن الوظائف المحلية

ولهذا السبب ارتبط الريف مع المدن المجاورة بالعديد من العلاقات الإقليمية يمكن إن تدرج فيما يأتي:

١- العلاقات الزراعية:

بما إن الزراعة هي النشاط الاقتصادي الرئيسي في المناطق الريفية لذا فقد أفردنا لهذه العلاقات مجالا مستقلا لما لها من أهمية كبيرة ونسبة عالية ضمن العلاقات الريفية – الحضرية فريف المدينة هو مطمحها الفسيح الذي يكون إقليم تغذية وتموين لها . كما إن الزراعة تعد من المجالات التي تنفذ من خلالها المدينة إلى الريف على الرغم من إن حياتها صارت متعلقة أكثر من ذي قبل بالتجارة أو الصناعة. وتعتمد المدينة في غذائها خاصة السريع التلّف منه على الريف المجاور حتى إن كثيرا من البساتين تقع على مقربة منها، وإلى اليوم يتوقف عمق المجال الذي تحصل منه المدينة على حاجاتها من الفواكه ومنتجات الألبان على مدى تقدم وسائل المواصلات، ففي الدول النامية تضيق الرقعة التي تمد المدينة بحاجاتها اليومية من المواد الغذائية بينما تتسع وتطول المسافة في الدول المتقدمة، فحدود المنطقة التي تمد باريس بالحليب مثلا تبعد عن مركز المدينة بنحو ٤٠٠ كم وتعتمد لندن في سد مطالبها منه على كل السهل الانكليزي.

إما عن المحصول الزراعي في الريف حول المدينة فتوجد هنا ضوابط الطلب وسعر الأرض وتكاليف الإنتاج مع طبيعة المحصول من حيث الوزن والقابلية للتلف لها توجيه واحد مشترك. فالمحاصيل العالية القيمة، السريعة التلف، التي تطلب طازجة تحتل اقرب ارض إلى المدينة، إما المحاصيل الثقيلة القليلة القيمة التي تعيش طويلا فتكون بعيدة عن

المدينة. ومن هنا يظهر تخصص في المركب الزراعي بحسب المسافة من سوق المدينة، أي تتضد المحاصيل في نطاقات واضحة.

وقد حاول عدد من الجغرافيون تصوير تتابع النطاقات التي تمت المدينة بالخضر والفواكه ومنتجات الألبان وغيرها من متطلبات الحياة اليومية على أساس أنها تأخذ ترتيبا خاصا وقد خرج بعضهم برأي مفاده إن تلك النطاقات تأخذ ترتيبا خاصا، فالنطاق الأقرب إلى المدينة هو نطاق الورد ثم يليه نطاق الخضر والفواكه، إما النطاق الثالث فهو مخصص لزراعته كثيفة عمادها تربية الماشية من أجل ألبانها وينتهي هذا النطاق بمنطقة لتربية مختلف الحيوانات وهذه بدورها يحوطها نطاق من الغابات. وهي نطاقات تنتج بسبب تفاعل عوامل بشرية وطبيعية في إطار حضاري خاص ولكل بيئة مناخية ترتيب يناسب ما فيها من صفات فما ذكر في التتابع أعلاه يتلاءم مع العروض المعتدلة الرطبة .

إما فيلله Fleure وجد في دراسته لقرية بيركنفلد Birkenfeld نطاقين من كثافة الإنتاج: نطاق قرب القرية ونطاق بعيد عنها فالنطاق الداخلي يمتاز بدوره زراعية ثلاثية واستعمال غزير للأسمدة الخضراء والحيوانية. إما النطاق الخارجي فدورته خماسية وسداسية، يخفي منها البنجر الثقيل تماما ويحل محله الشوفان والبر يسم وكالهما اقل عائدا.

وقد رسم ميلر خطوط الأزمان المتساوية للتسميد

فوجد إن أبعدها في النطاق الداخلي حوالي ساعة، بينما هي ساعتان في النطاق الخارجي ، أي من الممكن نقل حملين من السماد إلى الأول مقابل كل حمل إلى الثاني. من هنا أصبح التسميد أكثر تعذرا في النطاق الخارجي ومن ثم كانت الدورة خماسية لا تحتاج إلى كثير من التسميد. وهذا يعني إن كثافة الإنتاج تزيد بينما تقل نسب تكاليف التسميد كلما اقتربنا من المدينة .

وفي النطاقات الريفية المحيطة بالمدن التي تنتج ما تحتاجه المدن من المحاصيل المذكورة أنفا، وتختار المناطق ذات التربة الخصبة والمياه الوفيرة وفي حالة عدم توفر هذه التربة فإن الفلاحين يستخدمون الأسمدة العضوية لزيادة خصوبتها وخاصة في الأجزاء التي تكون حولها المدن الكبيرة الحجم ولهذا تحاط كل مدينة بحلقة من (أكثر أنواع التربة) خصبا وإنتاج وتمتد إلى مدن لا يمكن لرجل إن يذهب بالحمل ويعود في اليوم خاصة في الأقطار النامية والكثيفة السكان

وبعد فإن المدينة ما زالت في كل الاقطار هي صاحبة الفضل في توجيه استغلال الارض القريبة افضل استغلال تنفسك تبحث عن اصلح الاساليب الزراعية ومن وراء جدران معاملها واسوار حقولها الجريبية تسعى لتهدجين احسن الحيوانات وانتقاء افضل البذور خدمة للريف والزراعة والزراع العلاقات التجارية والصناعية :

لايمكن ان تكون القرية استيطاننا مستقلا قائما لوحدة بل ان القرى كما سبقت الاشار هي اجزاء من نظام استيطاني معقد تكونه العديد من الانظمة الاجتماعية الاقتصادية. يضم العشرات من القرى ذات الحجم المختلفة تنتظم كلها في شبكة ذات علاقات مكانية متكاملة تشكل المدن مراكز لهذه الاقاليم. وبما انه ليس من المعقول تطوير كل قرية على حدة حتى تصبح مكانا يقدم مجموعة من الخدمات التسويقية او الادارية او الترفيهية . فإن عملا من

هذا القبيل ليس دون طاقة أي بلد نام فحسب بل انه مطلب لا يمكن ان يصل اليه حتى البلدان المتقدمة بسبب الاتفاق العالي الذي يتطلبه وبسبب عدم امكانية توفير الوقت والجهد والعنصر البشري لمثل هذا التطور.

ان اقاليم الارياف والحضر لا يمكن ان تعيش في معزل عن بعضها البعض لان كلا منها قاعدة للاخرى، وان هذا الارتباط له طبيعة عضوية وجغرافية، ان جميع مراكز الحضر كانت مراكز للاسواق وهنا لا نجد خلافا بين السوق والمدينة وظل هذا الربط في التعريف بين الاثنين سائدا وظلت المراكز التي لا تتمتع بمراكز اسواق او مراكز حضر ظلت مناطق ارياف في هويتها وشخصيتها ووظيفتها. ونتيجة للاختلاف الواضح في تركيب وشخصية مدن الاسواق هذه عن اقاليم الارياف ظل الفرق واضحا وجليا بين الاثنين.

وكان من الطبيعي ان يتوفر لكل منطقة ريفية ذات مساحة وامكانيات معينه، ان يتوفر لها بؤرة حضرية (مكان مركزي) ترسل اليه انتاج هذه المنطقة من المنتجات الاولية للتسويق والتصدير وكذلك تستمد احتياجاتها من المواد الوسيطة والاستهلاكية من هذه البؤرة وكان من الطبيعي ان تكون نقطة لبيع المنتجات والتسوق لما يحتاجون اليه من بضائع.

ولا تتحول المدينة الى سوق للريف المجاور لمجرد انها تستقبل منه ما تصنع وتأخذ من ما تأكل وإنما يتم ذلك بالدرجة الاولى بفضل مؤسساتها التجارية التي تعرض الانتاج وتتكفل بنقله وتوزيعه على اوسع مجال ويتمثل ذلك واضحا بالنسبة للمدن التي اقامها المستعمرون في افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية بقصد جعلها مركز انطلاق لاستغلال ثروات البيئة المحلية.

ولا يقتصر هذا الدور على توفير فرص العمل للسكان ومدعم بالقروض ورعاية مصالحهم المالية وتسويق منتجاتهم بل يشمل توفير حاجياتهم بما يناسب قدراتهم الشرائية فأهل الريف يفتدون الى المدينة لشراء ما يتطلبون من المنتجات والسلع.

والتجارة بلا ريب اهم اوجه العلاقة الوظيفية بين المدينة والاقاليم ولما كان من المستحيل ماديا واقتصاديا ان تتعامل كل نقطة على سطح الاقليم مع كل نقطة اخرى وتتصل بها مباشرة، فقد اصبح التركيز ضروره.

فالمدينة هي وسيط الاتصال والتعامل بين اجزاء الريف المشتت المترامي بعضه عن البعض، وبينها وبين الاقاليم الريفية الاخرى وحدتها. فالدور التجاري للمدينة هو الذي يجعلها بصورة مباشرة ((أداة تكامل)) الاقليم الريفي ويجعله اقليما وظيفيا بالمعنى المباشر.

ولا يجد سكان الريف الاقرب كل حاجاتهم الشرائية في القرية، ولذلك يستكملون الاهم منها برحلة يومية او فترية الى المدينة. فبعض تلك الحاجات تتصل بمطالب يومية مستمره كالطعام والصحف والادوية وغيرها، وكلها متطلبات لا بد ان تكون على مسافة قصيرة بقدر الامكان من مكان السكن ومن ثم لا بد ان تكون واسعة الانتشار، والبعض الآخر يشمل المتطلبات الاقل إلحاحاً او ضرورة في الحياة والتي من الممكن ان تسد طريق التسوق الأسبوعي وهذه الحاجات ليس من الضروري ان توزع على نطاق واسع. فهو يظم محلات لبيع الاحذية والملابس ام بعض المواد الغذائية الخاصة اما الرحلة الاطول التي تتطلب زيادة المدينة الكبرى فأنما تكون من اجل الحصول على انواع افضل من الملابس

او شراء الأثاث او كتب او مجوهرات وهكذا نجد تدرجا في الحاجات وفي ضرورياتها وكذلك المسافات التي يقطعها الريفي من اجل الحصول عليها .
على ان الحال يختلف بين الدول النامية والدول المتقدمة وذلك لاسباب متعددة منها التطور الحضاري والتقني ومايتوفر من تسهيلات مدنية كما ان المواصلات ووسائلها المتاحة تؤدي دورا كبيرا في تحديد نفوذ المدينة وان كل ما تقدم او تطور فيها يقرب المدينة من الريف خطوة جديدة.

ولما كانت معرفة الظروف التي يتمكن ابن القرية فيها من الوصول الى المدينة مهمة في تحديد مجال اقليم المدينة فقد ابتكرت خطوط الازمات المتساوية Isochromes وهي خطوط تربط بين الاماكن التي يستطيع المواطن بلوغها من نقطة معينة بوسيله معينة في وقت واحد. وعند رسم هذه الخطوط ينبغي الاخذ بنظر الاعتبار عوامل متعددة تحدد في المجال الذي ترسم فيه الخطوط وما تكون عليه صورته ولعل من اهمها نوعية وسائل المواصلات المستخدمة وسرعتها والوقت الذي يقطعته المسافر للوصول اليها من منزله لبلوغها من مكان عمله ومدى انتظام انطلاقها ووصولها .

ومن الواضح ان طرق النقل الجيدة الصالحة للعمل طوال العام تسهل وصول المواد الزراعية المنتجة الى المستهلك الذي هو غالبا ما يكون ساكن المدينة بالوقت والسفر الملائمين الامر الذي يسمح بحصول المزارع على ريع ممكن. وكلما تطورت طرق وسائل النقل انخفضت تكاليفها ، اذ انها تنخفض ٥% من تكاليف الانتاج الكلية بينما ترتفع حتى تصل الى ٣٠% في البلدان النامية

ونظرا لما يمتاز به الريف بشكل عام والريف المحيط بالمدن خاصة، من عوامل طبيعية وبشرية تجعله صالحا لصناعات عديدة. كما تجعل اهتمام المدينة بتصنيعه امرا حيويا لصالح البيئات الريفية والحضرية. ولذا اخذ الاهتمام يتزايد في تطوير الريف صناعيا بادخال صناعات عديدة تتلاءم وبيئة الريف المجاور .

وقد ادى ميل الصناعات الى الانتقال من المدينة الى اطرافها الريفية للافادة من سعة المكان وانخفاض الضرائب وسعر الارض، ادى هذا الى جذب المدينة الصناعية المتخصصة باطراد الى الاطار الاقليمي والريفي وتقوية علاقاتها المتبادلة فمثلا ان ليون قد احوالت صناعاتها ومصانعها الى ريفها ومدن ريفها المحيط حتى خلقت شبكة من العلاقات الاقتصادية بينها وبين ريفها ترقى الى خلق اقليم اقتصادي كامل يرادف اقليم المدينة .
كما ان العديد من المدن المتخصصة جدا تؤدي الى دور المصنع لاقليمها الريفي، ويقسم الدور الى ما قبل المزرعة وما بعدها أي على الترتيب تصنيع خامات مستوردة من مراكز اخرى لتوزيعها على الاقليم الريفي وتصنيع خامات الريف الزراعية للاستهلاك المحلي او التصدير وفي كلتا الحالتين لا يمكن لصناعة المدن ان تفلت من اثر التوجيه الريفي الاقليمي .